الفصل الثالث عشر

صورة العربي الفلسطيني في الفكر الصهيوني الإستيطاني

الفصل الثالث عشر

صورة العربي الفلسطيني في الفكر الصهيوني الإستيطاني

تعتبر الصهيونية بكل قيمها ومبررات وجودها مشروعا إستعماريا غربيا، نشأ فى الدول الأوروبية قبل أن يفكر فيه اليهود الأوروبين، وتتبلور أهداف هذا المشروع الإستعمارى الإستيطانى فى نقل اليهود الأوروبيين من البلاد التى يعيشون فيها إلى أرض فلسطين، ونقل أهالى فلسطين العرب من ديارهم وتشريدهم فى أماكن أخرى أو إبادتهم

ويستند مصممو المشروع على ركنين أساسيين لتبرير أهداف مشروعهم هما:

١ – التفوق الغربى الذى يبرر الاستعمار

٢ – التأخر الشرقى الذى يبرر الطرد والإبادة

وتعلل دور بلفور الإنجليزى صاحب وعد بلفور المشهور لتنفيذ مشروعه بأن هناك حقيقة تاريخية واضحة تبرر عدم المساواة بين أجناس البشر، حيث توجد أجناس متفوقة هى الأجناس الأوروبية وأخرى متخلفة هى شعوب آسيا وإفريقية، ويمثل الإستعمار الاستيطانى حق اللأجناس المتفوقة فى إستعمار وتسخير الأجناس المتخلفة، ونادى الكثير من الزعماء الإنجليز بدعوى مفادها أن الاستعمار الأوروبى الإستيطانى هو حق للرجل الأبيض فى بسط سلطانه على البلاد المتخلفة لنشر المدنية الغربية وقيمها الخلقية والدينية بين ربوعها، لذلك فالإحتلال الأوروبى لدول آسيا وإفريقية هو نعمة كبيرة ومنحة من الرب لسكان هذه البلاد المتخلفين الذين إما أن يأخذوا بهذه الحضارة ويضعون أنفسهم تحت سيطرة الرجل الأبيض يستغلهم ويسخرهم فى خدمته كيفما شاء أو تحق عليهم الإبادة لتحل الأجناس البيضاء محلهم، وهذا هو ما حدث فى بعض المستعمرات الإفريقية والآسيوية، وما حل من إبادة على سكان قارة أمريكا من الهنود الحمر حتى فنوا عن آخرهم.

وهذه النظرية أخذت طريقها الى فكر المفكرين الصهاينة وتبنوها ودعوا إليها بإعتبار الحركة الصهيونية فى أساسها هى من صميم الحضارة الغربية الحديثة ونتاجها، وعليه وبهذا المنظار نظر الصهاينة الى الفلسطينيين العرب وللعرب عامة، فالصهيونية مثلها مثل الإستعمار الغربى تقسم سكان العالم إلى أجناس عليا متفوقة ويأتى اليهود على قمتهم، وأجناس دنيا متخلفة يندرج الفلسطينيون والعرب فيهم، ويرى بعض الصهاينة أنهم ينتمون الى الجنس الأبيض الآرى المتفوق ولا ينتمون الى الجنس السامى، ولذلك فمن حقهم التمتع بمزايا الجنس الأبيض فى الإستعمار وإحتلال ما يريدون من أراضى الأجناس المتخلفة، وكان هرتزل مؤسس الصهيونية يرى أن مشروعه الصهيونى فى جوهره هو مشروع لنقل الحضارة الغربية البيضاء المتفوقة إلى الشرق، كما قارن كثير من زعماء الصهيونية مثل وايزمان وزانجويل وبن جوريون وأبا إيبان بين المستوطنين اليهود من جهة والمستوطنين البيض فى أمريكا من جهة أخرى.

وصم العرب بالتخلف:-

وفى مقابل هذا التفوق العرقى الحضارى طرح الصهاينة فكرة التخلف العربى والحضارى أيضا، وحين تحدث هرتزل عن تفوق الحضارة الغربية ممثلة فى المستعمر الصهيونى فإنه تحدث أيضا عن فلسطين باعتبارها «هذا الركن الموبوء والخالى من الشرق»، وقد عبر عن رغبته فى أن تكون الدولة الصهيونية بمثابة الخط المنيع الذى يقف ضد الهمجية الشرقية التى يمثلها العرب بطبيعة الحال والفلسطينيون.

وقد كتب وايزمان كتابا إلى ترومان يدافع فيه عن مشروعه الصهيونى مستندا الى نفس الثنائية العرقية، فأخبره عن المجتمع الصهيونى المتقدم الذى يضم العمال والفلاحين فى الأساس ومتعلمين وطبقة صناعية ماهرة تعيش على مستوى عال، ثم قارن بين هذه الصورة المشرفة والصورة الكئيبة القاتمة للمجتمعات الأمية الفقيرة فى فلسطين، وبطبيعة الحال لم يحاول وايزمان أن يشرح للرئيس الأمريكى السبب الكائن وراء هذا الوضع ولا السبب الخفى وراء عدم بزوغ فجر الحضارة بعد خمسين عاما من الإستعمار البريطانى الصهيونى.

وهذه الرؤية للإنسان الفلسطيني الذى لا يستحق سوى الطرد أو الإبادة لاتزال لها إمتداداتها داخل المجتمع الإسرائيلى حتى الآن، فمثلا كتب أحد ضباط الجيش مجموعة من قصص الأطفال بطلها كلب بوليسى على درجة كبيرة من الذكاء تفوق ذكاء أى فلسطينى وجاء فى استطلاعات الرأى المنشورة فى إسرائيل أن ٧٦٪ من الإسرائيليين يؤمنون بأن العرب لم يصلوا إلى مستوى التقدم الذى وصل اليه اليهود. وجاء فى كتاب للأستاذ سيد ياسين الشخصية العربية بين المفهوم العربى والمفهوم الإسرائيلى، تحقيق عن هذا التصور الإسرائيلى للشخصية العربية الفلسطينية لخصه فى العبارات التالية «العرب لا يفهمون سوى لغة القوة، ولذلك فاتباع سياسة الردع والعنف معهم هو الأسلوب الأمثل، وهم قوم فرديون مفككون، يميلون الى الكذب والمبالغة وخداع الذات، وهم بالمقارنة بالإسرائيليين كسالى وجبناء وخونة، ومستوى ذكائهم منخفض أو على الجملة فهم أدنى من الإسرائيليين».

وهذه المعتقدات الإسرائيلية تفسر لنا تصرف رؤساء وزارات إسرائيل وقوادها سواء كانوا من حزب العمل أو حزب الليكود، فشمعون بيريز رئيس الوزراء الأسبق ورئيس حزب العمل الإسرائيلى حاليا والذى يعتبرونه من الحمائم والحائز على جائزة نوبل للسلام، هو صاحب مذبحة قانا فى لبنان فى أثناء حملته، على لبنان والتى سماها عناقيد الغضب سنة ١٩٩٦، وقتل فى هذه المذبحة مئات من الأطفال والشيوخ والنساء الذين إلتجأوا الى مبنى للأمم المتحدة هربا من الغارات الجوية الاسرائيلية، ولكن الطائرات لحقت بهم هناك ودمرت المبنى فوق رءوسهم وضريتهم وبالنابالم والقنابل العنقودية، أما باراك الذى إعتبره الكثيرون حمامة من حمائم السلام، فمذابحه ضد الفلسطينيين العزل وحصاره للمدن والقرى الفلسطينية وأمره بقصفها جوا وبحرا وبرا وقتل أطفال فلسطين بالجملة أمر معروف، وأما السفاح شارون صاحب مذابح صبرا وشاتيلا فى لبنان ومذابح دير ياسين وقبية فى فلسطين وأوامره بإعدام الاسرى المصريين بعد حرب ١٩٧٣ أشهر من أن يعرف به، وهو الآن يمارس هوايته فى سفك دماء الفلسطينيين بكل قسوة وبشاعة بعد أن أيقن بتأييد الإدارة الأمريكية الجديدة له فى إجرامه الوحشى وتزويدها له بالأسلحة الأمريكية الفتاكة والمحرمة دوليا ليجربها فى الفتك بالشعب الفلسطينى الأعزل. وهذا يثبت ترسب القيم الصهيونية العنصرية فى نفسية كل زعماء إسرائيل وقواد هذه الدولة العبرية المعتدية، ثم تغلغل هذه المفاهيم والقيم الصهيونية

بين جميع أفراد الشعب الإسرائيلى وطبقاته حتى من يدعى منهم أنه من أنصار السلام أو داعية للسلام، والسلام والأمن يعنى عند الجميع التخلص من الفلسطينيين والعرب بالقتل والإبادة لأنهم جنس من الأغيار لا يستحقون الحياة، وكما يقولون دائما عند إرتكاب جرائمهم «هكذا يريد الرب، ونحن جنوده المنفذين لمشيئته».

والأوصاف العنصرية التى يصبها الإسرائيليون على المجتمع الفلسطينى والعرب جميعا هى عبارة عن قوالب لفظية وأنماط تصورية جاهزة تطبقها أى جماعة عنصرية منتصرة على جماعات المقهورين، ومن يدرس السلوك العنصرى للجماعات يعرف أن مثل هذه الأوصاف كانت تستخدم أيضا للإشارة إلى السود سواء كانوا فى جنوب إفريقية أم فى القارة الأمريكية.

والصورة العنصرية للجماعات البشرية عند العنصرين البيض والصهاينة تجرد الضحية- وتجعل منها وحدة لا شأن لها ولا قيمة تنتمى إلى محيط بشرى أكبر (كالسود والفلسطينيين والعرب)، وعملية التجريد هذه تجعل من الضحية شيئا ثابتا لا يتغير موجود خارج الزمان ولا قيمة لوجوده، بل إن لوجوده أثرا سلبيا.

ويسقط عامل الزمان من الرؤية العنصرية الإسرائيلية للعربى فى المستقبل، فلو فرضنا جدلا أن العرب والفلسطينيون متخلفون الآن لهذه الدرجة، فهل سيبقى تخلفهم هذا ملازما لهم عبر الزمان؟.

أليس من المحتمل أن يتطوروا ويتعلموا علوم الغرب وفنونه ويأخذون بأسباب قوته ثم يرتدوا ليسحقوا هذا الجيب الصهيونى الذى زرع فى قلب بلادهم؟ فالعقل الصهيونى لا يتصور أبدا هذا التصور، ويتعامل مع العرب على أنهم قوم يعيشون خارج الزمان وسيظلون هكذا إلى الأبد، وإن كانت توجد لحظات نادرة يضطر فيها العقل الصهيونى أن يفيق من غفلته مضطرا ويواجه الكيان العربى ككيان تاريخى متميز، خصوصا عندما يواجه هذا العقل مشكلة مثل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين أو يعترف بوجود شعب فلسطينى مازال موجودا على الأرض الفلسطينية، ويرى **مايوكالن** الفيلسوف الأمريكى الصهيونى أن الصورة المثلى للفلسطينى فى المستقبل هى صورة اللاجىء الذى يحمل جواز سفره وغيره من الوثائق التى

تمكنه من التحرك بحرية فى العالم بحثا عن مكان مناسب يستقر فيه، «وهذه تشبه صورة اليهودى التائه فى الماضى القريب» . ومفهوم هذا الفيلسوف غريب كل الغرابة، فهو يعتقد بأنه إذا تم تحديث الشخصية الفلسطينية فإنها سوف تقبل المشروع الصهيونى وترحل عن فلسطين فى سلام وسكينة، ويرى فلاسفة الصهيونية الآن أن عدم التماثل الحضارى بين إسرائيل والعرب هى من أهم أسباب العداء بينهما ويشكل أساس الصراع العربى الإسرائيلى، ويرى هؤلاء أن عملية تحديث العالم العربى سوف تستغرق مدة طويلة، قد تكون مائة عام، ولذا فإنهم يرون أنه يجب إحاطة اسرائيل بحزام من الأسلحة النووية إلى أن يتم تحديث العرب ويقبلوا بوجودها ويتم حينئذ ظهور السلام بين إسرائيل وبين جيرانها، ويتصور الصهاينة أن الشخصية العربية سوف تتلاشى بعد عملية التحديث وينحسر خطرها، وتتفتت الدول العربية إلى دويلات أثنية وعرقية ودينية مختلفة مثل دويلات درزية وسنية وشيعية ومارونية وكردية وهكذا، وهذه هى الرؤية الإستراتيجية الإسرائيلية المستقبلية للعالم العربى، وهى العمل على تقسيم المنطقة إلى دويلات صغيرة ضعيفة متناحرة، تكون إسرائيل فى وسطها بمثابة القائد والرائد والحكم، وبذلك يتم القضاء على حلم الأمة العربية فى الوحدة وتكوين دولة واحدة، وهذه السياسة الاستراتيجية هى التى حاولت إسرائيل بدء تنفيذها فى لبنان وأشعلت الحرب بين الطوائف اللبنانية لمدة ١٥ عاما، وأخيرا باء المشروع الصهيونى فى لبنان بالفشل، وتماسكت الطوائف اللبنانية من جديد، وبرزت الدولة اللبنانية الموحدة، بل إشتعلت المقاومة اللبنانية الشرسة فى الجنوب ضد الوجود الإسرائيلى والذى كان الهدف منه تكريس هذا المخطط والبدء بإنشاء دويلة فى الجنوب اللبنانى تعتمد على إسرائيل إعتمادا كليا وتكون تابعة لها، ولكن المقاومة اللبنانية أفشلت هذا المخطط وانسحب الجيش الإسرائيلى من لبنان على عجل دون تخطيط، وكانت هذه هى أول هزيمة تلحق به بعد حرب ١٩٧٣، ولكن الصهيونيون لا يزالون يحلمون بتنفيذ مثل هذا المشروع حيث تقوم الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا حاليا بمشورة من الكيان الصهيونى بمحاولة لتقسيم العراق إلى ثلاث دويلات هزيلة، واحدة للشيعة فى الجنوب وأخرى للاكراد فى الشمال وثالثة للسنة فى الوسط، وتفرض الدولتان حظرا للطيران العراقى فوق إثنتين من هذه المناطق- الكردية والشيعية- وتقوم بغارات جوية شبه يومية على الأهداف العراقية فيهما، كما تشجع قيام الحركات

الإنفصالية فيهما وترصد لذلك أموالا ضخمة، ورغم مضى أكثر من ١٠ سنوات على هذه الخطة فلم يتحقق منها شيء يذكر حتى الآن رغم كثرة ما أنفقوه من جهد ومال لتنفيذها، ويعتبر العراق ثانى أكبر الدول العربية، وتجربة تفكيكه هذا سوف تكون كالقالب الذى يمكن تطبيقه فى المستقبل على أى دولة عربية أخرى، وبذلك يتحقق الأمان الذى ينشده الكيان الصهيونى.

لذلك إصطدم التفاؤل الصهيونى بالفشل فى تنفيذ هذا المخطط حتى الان سواء أكانت محاولة تنفيذه تجرى فى لبنان أو العراق أو السودان، لذلك إنفجرت العدوانية الهستيرية الصهيونية بسبب هذا الفشل الذى أصاب مخططها ولو بصفة مؤقتة، وخلعت الدولة العبرية عنها قناع السلام المزيف الذى طالما خدعت به العرب لفترة طويلة، ولجأت إلى إستعمال الأسلحة الأمريكية الفتاكة فى ضرب الشعب الفلسطينى بعنف وضراوة، واستخدمت سلاح الإغتيال لاغتيال رموز وقواد حركات المقاومة الفلسطينية، آملة بث الخوف والرعب فى باقى الدول العربية المجاورة وحملها على طأطأة رءوسها أمام العربدة الصهيونية، ومن ذلك ما تفوه به بعض وزراء شارون من تهديد بضرب السد العالى بالقنابل النووية، وتهجم وقح على مصر وقادتها.

التعامل مع الشعب الفلسطيني ينبع من نظرية الإمتياز الإسرائيلي:

إن نظرية إمتياز الشعب الإسرائيلى وسموه على باقى شعوب العالم (الأغيار) ينبعث من الأساطير الدينية الإسرائيلية التى تصف دائما اليهود بأنهم شعب الله المختار الذى من أجله خلق الرب العالم وسخر البشر كلهم لخدمتهم، أما الفلسطينيون خاصة والعرب عامة فهم من طبقة الأغيار الدنيا غير المتحضرة والتى لا يجب أن يكون لها حق فى الوجود، لذلك كانت علاقة اليهود بهؤلاء الأغيار المتخلفين علاقة عداء دائم لأنهم فى نظر اليهود ذئاب قتلة وهم أعداء اليهود الأزليين، وحسب هذه المفاهيم فإنه لا يجب التعامل مع الفلسطينيين خاصة والعرب عامة إلا بالسلاح والقوة، وهى اللغة التى يفهمها هؤلاء الأغيار ويرضخون لها، ولا يصح أبدا التحاور مع العرب إلا ليسلم هؤلاء بما يمليه عليهم اليهود دون نقض أو إبرام.

وهذا التصور اليهودى للعرب قديم قدم وعد بلفور الذى يشير إلى العرب من سكان إسرائيل بأنهم الجماعات غير اليهودية رغم أنهم كانوا يشكلون وقتئذ نحو ٩٣ ٪ من سكان فلسطين، وذلك دون أن يحدد هذه الجماعات أو يذكر إسمها، حتى تظل على مستوى عال من التجريد، وعليه يسهل إتخاذ قرار بحرمانها من حقوقها أو حتى إبادتها.

وقد أفتى كبار الحاخامات اليهود بشرعية إبادة العرب، فمن كلمات الحاخام إبراهام أفيدون حاخام القيادة المركزية للجيش الإسرائيلى للجنود أنه «مصرح لكم بل من واجبكم طبقا للشريعة اليهودية أن تقتلوا المدنيين من الأغيار حتى لو كانوا خيرين»، ثم إقتبس من التلمود هذه الكلمات «ينبغى عليك أن تقتل أفضل الأغيار»، وما مناداة الحاخام الأكبر عوفادايوسف فى هذه الأيام «بإبادة العرب حتى ولو إستخدمت القنابل النووية لأنهم لئام لا يستحقون إلا الإبادة لأن الرب قد ندم لما خلق العرب». لأكبر دليل على هذه النزعة العنصرية المستمدة من أساطير التلمود وغيره من كتبهم الدينية.

وتبعا لهذه المفاهيم الإسرائيلية فإن العربى الفلسطينى لا ينبغى أن يكون له وجود ولا حق له فى مال أو عقار فوق أرض فلسطين، لذلك فاللاجئون الفلسطينيون شأن لا وجود له ولا يهم إسرائيل فى قليل أو كثير، لأن وجودهم فى أرض الميعاد قبل ذلك كان وجودا غير شرعى إنتهى بطردهم منها، بعكس العلاقة القائمة بين اليهود وفلسطين التى تسمى «ممارتس يسرائيل» فى الأدبيات الصهيونية، فهى علاقة صوفية مقدسة وتعتبر من الأسرار الدينية، وإنطلاقا من هذه النظرة الصوفية، أمكن لليهود أن يروجوا مقولة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، وروج الصهاينة لهذه المقولة على أوسع نطاق، حتى أن بعض زعماء الصهيونية الذين لم تطأ أقدامهم أرض فلسطين صدقوا ما كان يقال لهم إلى أن ذهبوا إلى فلسطين ووجدوا أن عمليات الذبح والإرهاب كانت قائمة على قدم وساق، ولذلك يمكننا القول بأن العربى الغائب هو حلم من الأحلام الصهيونية، ومعناه سياسيا انه العربى الذى يجب أن يغيب، ومن هذا السياق نستطيع أن نفهم عملية طرد العرب على نطاق واسع من الأراضى الفلسطينية، كذلك يمكن فهم مبررات المذابح المتكررة ضد الفلسطينيين فى كل مكان فى الأرض الفلسطينية، وحتى فى خارج فلسطين مثل مذبحة صبرا وشاتيلا فى بيروت، لأن

مجرد وجود الفلسطينيين فى أى مكان هو دليل على أن الصهيونية تستند إلى أكذوبة، الأمر الذى يفقدها شرعيتها، ولهذا لاحظنا فى مفاوضات السلام المزعومة بين باراك والفلسطينيين تنكر باراك الشديد لوجود اللاجئين الفلسطينيين وعدم موافقته على عودتهم أبدا أو حتى دفع تعويضات إليهم.

وفى النهاية يمكننا أن نقول بأن الرؤية الصهيونية للعرب بأبعادها الثلاثة:- العربى المتخلف، والعربى الممثل للأغيار، والعربى الغائب تترجم عند الإسرائيليين إلى واقع سياسى تسانده مؤسسات وقوانين صهيونية راسخة مثل قانون العودة الذى يمكن اليهود وحدهم من الإستيطان فى فلسطين، ويحجب هذا الحق عن العرب، والصندوق القومى اليهودى الذى يسهل لليهود الإستيلاء على الأراضى العربية الزراعية ويجعل من المستحيل على الفلسطينيين حتى مجرد العمل فيها، ولذلك فإنه من الوهم تصور أن الإسرائيليين سوف يتنازلون عن أطماعهم فى الأرض بمجرد التفاوض والحوار معهم، وهاهى محادثات السلام التى بدأت فى أسلو واستمرت عشر سنوات كاملة يسقطها الإسرائيليون كلها مرة واحدة، ويبدأون جولة جديدة من الإعتداءات الإجرامية على الشعب الفلسطينى الأعزل باستخدام كل ما فى الترسانة الأمريكية من سلاح، ويعلم الجميع الآن أن محادثات السلام هذه كانت خدعة صهيونية توفر للإسرائيليين الوقت اللازم لإبتلاع أراضى الضفة وغزة والقدس الشريف وبناء المستعمرات فوقها ونقل مئات الآلاف من المستوطنين اليهود إليها، بما يؤدى إلى تغيير الواقع السكانى على الأرض، ثم يكملوا هذه الجريمة بجريمة أبشع هى القتل والإرهاب وقصف المدن والقرى ومحاصراتها وقتل الأطفال والنساء بالجملة وإبادة الزعماء الفلسطينيين بالإغتيال، وقتل رجال الشرطة والأمن الفلسطينيين، لدفع الجميع فى النهاية الى التيه خارج أرض فلسطين ثم هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل مكانه.

والشعب العربى الفلسطينى يعى هذه الأمور جميعا منذ البداية، لذلك كانت هناك مقاومة شعبية ضد نظريات التفاوض والسلام الإستراتيجى وسلام الشجعان وغير ذلك من المقولات التى أثبتت الأيام زيفها.